

هذه هي جماع الاغراض التي ذكرها القدامى والمحدثون من دراسة البلاغة، فهل استطاعت أو تستطيع هذه الدراسة أن توصلنا إليها؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نحب أن نفصل القول في الطرق التي سلكها العلماء في هذه الدراسة، ويبدو لنا واضحاً أن الدراسة في علوم البيان اتخذت مناهج ثلاثة:

الأول: الطريقة النقدية: وهي طريقة تعني بالشواهد وتحليلها: ويمثلها عندى كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري.

الثاني: الطريقة التعقيدية، وهي طريقة تعني بوضع الضوابط، والتدقيق في تحديدها، ويمثلها عمل السكاكي ومن تابعه.

الثالث: الطريقة الوسطي، وهي تجمع بين الطريقتين السابقتين، فهي تعني بالشواهد، كما تعني بالقواعد، وإن كانت لا تدقق في الضبط كطريقة السكاكي، ويمثلها كتاب "الصناعتين" وما أشبه، ثم نعود إلى السؤال، فنقول في الجواب عنه: إن الاغراض الأخرى غير الاعجاز قد تحققها الطرق الثلاثة، وإن كان بعضها أكثر إعانة على هذه الاغراض من بعض غير أن بعض الباحثين من المحدثين لا يرون للطريقة السكاكية جدوى، بل يراها بعضهم تؤدي إلى عكس المقصود، وفي ذلك يقول الشيخ عبدالعزيز البشري، بصراحته المعهودة، وسخريته اللاذعة:

(فوق التعقيدى الشديد في عبارات هذه الكتب، والمبالغة في إبهامها وغموضها، فإن ملاك البحث فيها إنما هو الجدل اللفظي، والاعتساف في بحوث فلسفية لا غناء لها في صنعه البيان، بل إننى لازعم أنه لو كان هناك من يريد التخلص من قصاحة اللسان وقصاحة البيان، فليس عليه أكثر من أن يدرس هذه الكتب حق درسها ويديم النظر فيها، ويقلب في عباراتها لسانه وفكره، ليكون له كل ما يحب إن شاء الله!").

أما الاعجاز، هل تمكن معرفته أو لا تمكن؟ فهذا فقه!